

الفصل الثالث

البارودى بين السياسة والثورة

شاهد البارودى الأحداث التى تمر بوطنه عن قرب حيث كانت مصر فى عصر اسماعيل أبعد ما تكون عن الاستقرار فسياسته أدت إلى ارتباك أحوالها المالية واضطراب الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية، كما عاصر فترة وفود جمال الدين الأفغانى إلى مصر، ونشره لأفكاره الثورية والاصلاحية، مما جعل جذوة الوطنية تنتقد فى النفوس، وأعطى دفعة قوية للحركة الوطنية المصرية، وبعث فى نفوس قادتها الأمل فى إمكانية تغيير الأوضاع فى مصر. وقد شددت هذه الأحداث البارودى بقوة، وبدأت تموج فى نفسه روح الثورة بعد أن رأى البلاد تهوى إلى الكارثة. ويفكر البارودى فى عمل يوقف هذا التيار ولكنه يجد نفسه عاجزاً، ثم يبلغ به الشعور الوطنى نزوته فيدعو أهالى مصر إلى الثورة على الأوضاع الفاسدة، كما دعاهم إلى مواجهة الظلم وحمل السلاح للتخلص من ظالمهم فكتب شعراً يقول فيه:

فيا قوم هبوا إنما العمر فرصة
وفى الدهر طرق جمة ومنافع
أصبراً على مس الهوان وأنتم
عديد الحصى؟ إني إلى الله راجع
وكيف ترون الذل دار إقامة
وذلك فضل الله فى الأرض واسع
أرى رؤوساً قد أينعت لحصادها
فأين - ولا أين - السيوف القواطع

فكونوا حصيدا خامدين أو أفرعوا

إلى الحرب حتى يدفع الضيم دافع

ولكنها دعوة تذهب مع الرياح ويعود صداها يتعثر فى أنيال

اليأس! ويتلفت البارودى حوله فلا يجد من يسمع لندائه ولا مجيبا له ،
وكان مواطنيه قد وضعوا أصابعهم فى آذانهم كيلا يسمعوا، فيثور البارودى
عليهم ويقول:

أهبت فعاد الصوت لم يقض حاجة

إلى ، ولباني الصدى وهو طائع

فلم أدر أن الله صور قبلكم

تمائيل لم يخلق لهن مسامع

وهكذا كان صوت البارودى أسبق الأصوات فى الدعوة إلى الثورة

المسلحة على الفساد والظلم القائم فى البلاد واستمر الحال على ذلك حتى

تم عزل الخديوى اسماعيل وتولية ابنه توفيق حكم مصر عام ١٨٧٩

وأحس الوطنيون بالأمل فى الخلاص ولكن توفيق سرعان ما نقض عهوده

تجاه ما وعد به من اصلاح مما جعل البارودى ينضم إلى العربيين بعد أن

كاشفوه بأمرهم وأقسم لهم على الولاء والوفاء لحركتهم، وقدم لهم كل

المساعدات الممكنة وأغلب الظن أن البارودى كان همزة الوصل فى اللقاء

بين زعماء حركة الضباط وأعيان البلاد وكبرائها والعلماء، ذلك اللقاء الذى

اتفق فيه على تكوين جمعية سرية أطلقت على نفسها "الحزب الوطنى

المصرى"، واتخذ الحزب مقره فى حلوان بعيدا عن العيون وجواسيس

الخديوى ، وتغلغلت حركة الضباط فى الجيش ، وفى الوزارة ، وفى

القصر، وفي المعارضة، وأصبحت في موقف يخول لها حرية العمل والقدرة على المبادرة، واختيار الوقت المناسب للمعركة الفاصلة مع الخديوى وأعوانه.

ولما كانت الفروق الطبقيّة والميل إلى التعصب الجنسي واضحين في صفوف الجيش نظرا لتعصب عثمان رفقى وزير الحربية لأبناء جلدته من الشراكسة واستخفافه بالعنصر الوطنى، فكانت الوظائف الهامة والرتب والنياشين تعطى للضباط الشراكسة بينما يحرم منها الضباط المصريون، كما أن عثمان رفقى أخرج معظم الضباط المصريين من الجيش إلى المعاش قبل السن القانونى، كل هذه المظالم دفعت الضباط المصريين إلى التذمر وبدأت الثورة تجتاح قلوبهم فقرروا العمل علانية لوقف الظلم الذى لحق بهم ووافقهم البارودى على ذلك وانضم إلى مطالبهم وباع مع غيره من الضباط أحمد عرابى لرئاسة الحركة، واقسموا له يمين الولاء على السيف والمصحف، وبقي البارودى - وزير الأوقاف وقت ذلك - مستشارهم ولسان حالهم فى مجلس الوزراء يبلغهم بما يدور فيه من مواقف تجاههم وينصحهم بما يراه صالحا لهم ولحركتهم، وفى صبيحة ١٧ يناير ١٨٨١ تقدم أحمد عرابى وعبد العال حلمى وعلى فهمى بمذكرة إلى رياض باشا رئيس الوزراء يطالبون فيها بعزل وزير الحربية عثمان رفقى، وتعديل القوانين العسكرية بحيث يكون وزير الحربية مصرىا ووقف الظلم والمحسوبية، وفى ٣١ يناير ١٨٨١ اجتمع مجلس الوزراء فى سراى عابدين برئاسة الخديوى، وبحث فى أمر هذه المذكرة، واستقر الرأى على ضرورة محاكمة الضباط الثلاثة أمام مجلس عسكرى، وكان الأمر موضع

جدل طويل فى المجلس حيث يقول محمود باشا سامى البارودى أنه حصلت مناقشة طويلة فى هذا الصدد وان رياض باشا عارض عثمان رفقى قائلا انه يخشى حدوث تذرر بين الضباط، وقد وعده عثمان رفقى بالتكفل فى ضبط الأمور، وبعد أن استقر الرأى على محاكمة الضباط الثلاثة أصدر وزير الحربية أمرا بالقبض عليهم وسجنهم وتاليف مجلس عسكرى لمحاكمتهم، وحتى لا تخرج الأمور عن نطاق السيطرة اتبع عثمان رفقى طريقة ملتوية إذ ارسل إلى الضباط الثلاثة تذاكر يدعوهم فيها إلى ديوان الوزارة صباح أول فبراير للمداولة فى ترتيب الاحتفال بزفاف الأميرة جميلة هانم شقيقة الخديوي، ولكنهم أحسوا بالمكيدة عن طريق محمود سامى البارودى الذى أبلغهم بحقيقة الأمر، وحين دعاهم عثمان رفقى صباح أول فبراير إلى وزارة الحربية بقصر النيل أعدوا الخطة المضادة وما أن اعتقلوا حتى سارع آلاى الحرس بقيادة الاميرالاي محمد عبيد بالإفراج عنهم، مما أزعج الخديوي وخلال ذلك أشار عليه محمود سامى البارودى بإجابة طلبات الجند وحاول تبرير مظاهرتهم العسكرية، فقال له: " إنى أراهم مطيعين بدليل هتافهم باسم الخديوي، ولو أجيبت طلباتهم لانحسنت المسألة بسلام"، واستسلم توفيق للأمر وانتدب البارودى لمفاوضة الزعماء. ومن الطبيعى ان تسفر المفاوضات - والبارودى على رأسها - عن التسليم بمطالب الجيش كاملة فأقيل عثمان رفقى، وألغى قانون العسكرية المجحف، وأسندت وزارة الجهادية إلى محمود سامى البارودى، وكان النصر مؤزرا، واستردت القوى الوطنية بالجيش شجاعتها

فأيدته بروح منها، ووقفت خلفه تتأصره، وأخذت تتطلع إلى عمل أكبر..
وهو القيام بثورة تطيح بالفساد كله.

لقد كان موقف البارودى من حركة فبراير ودفاعه عن زعماء الحركة ومطالب الجيش فى مجلس الوزراء يثيران الشك فى نفس رياض، فبث العيون والأرصاد من حوله حتى تأكد من العلاقة السرية بين البارودى وزعماء الحركة "ومن نقله قرارات مجلس النظار إليهم"، ففس له عند الخديوي، وظل به حتى "اعتقد توفيق قلبا وقالبا ان محمود سامى متحد اتحادا كليا مع زعماء الحركة"، وأن بقاءه فى نظارة الجهادية مع ميله إلى عرابى سبب تطاول الضباط على السلطة العليا فى الدولة، فنأصبه هو ورياض العداء، وتربصا به الشر، حتى اضطر البارودى إلى الاستقالة فى ١٣ أغسطس ١٨٨١، واعتزال الحياة السياسية والعيش بعيدا عن جو القلق والاضطراب.

وكان البارودى قد اتفق مع زعماء الضباط على أنه إذا لم يستطع دفع الشر عنهم قدم استقالته، وعليهم أن يعدوا هذه الاستقالة إنذارا لهم يتوقعون بعده مالا تحمد عقباه وكان البارودى بالاسكندرية حين قدم استقالته، وبعد أن عاد إلى القاهرة أرسل إليه رياض مع خطاب قبول الاستقالة يبلغه أن يترك القاهرة ويبتعد عن العرابيين، ونتيجة لذلك هرع شيطان الشعر إلى نفس البارودى فقام بهجاء رياض باشا بقول:

هذا الذى تكره الأبصار طلعت

فحظها منه إيذاء وإيلام

فى وجهه سمة للغدر بينة

وبين جنبيه أحقاد وأوغام^(١)

(١) بمعنى الحقد الثابت فى الصدر

جاءت به عجز ليست بظاهرة

لها بمدرجة الفحشاء أرقام^(١)

مستيقظ للمخازى غير أن له

طرفا عن العرض والأوتار نوام

وكيف يصلح أمر الناس فى بلد

حكاهم لبنات اللهو خدام

ولكى يسيطر الخديوي على أمور الجيش عين صهره "داود يكن" مكان البارودى وطلب منه الحد من نشاط الضباط الوطنيين داخل صفوف الجيش وملاحقتهم بالجواسيس وتشتيت شملهم ، ونظرا لخطورة الموقف احتشد عرابى بقواته فى ميدان عابدين بعد ظهر الجمعة ٩ سبتمبر ١٨٨١ وقدم مطالبه إلى الخديوي بصفته ممثلا للأمة المصرية ، وهى إقالة وزارة رياض، وتشكيل مجلس نيابى ، وزيادة عدد الجيش والتصديق على قوانينه. وقد أرغم الخديوي على قبول هذه المطالب، بعد ان رفض عرابى ان تترك قواته ساحة عابدين إلا بعد أن تجاب مطالبه، ونتيجة لذلك شكلت وزارة جديدة برئاسة شريف باشا فى ١٤ سبتمبر ١٨٨١ وتم تعيين البارودى وزيرا للحربية فيها.

ونتيجة لاعتراض وزارة شريف باشا على السماح للنواب بالإشراف على الميزانية، وإصرار البارودى على ضرورة مناقشتها والاطلاع عليها، وعزل شريف باشا إذا لم يوافق على ذلك، تطورت الأمور إلى درجة التحدى مما أدى على استقالة الوزارة، ومطالبة النواب بتعيين البارودى

(١) جمع زلم بمعنى النصيب.

خلفا لشريف، وقد وافق الخديوى على ذلك، وكلف البارودى بتشكيل الوزارة كما أحال إليه وزارة الداخلية، وأحال إلى عرابى وزارة الحربية مما جعل زمام الأمور فى يد العرابيين كاملة.

وقد استهلت وزارة البارودى عهدها بأن جعلت من حق مجلس النواب النظر فى الميزانية والإشراف على أحوال البلاد المالية مع تعهدها باحترام الارتباطات الدولية والالتزامات المالية المرتبطة بالديون، كما كونت الحكومة مجلس شورى لرفع الاستبداد الإدارى عن الشعب، والمساعدة فى تجهيز القوانين واللوائح الإدارية. فصدر القانون بتعديل لائحة مجلس النواب، وتضمنت نصا يقول ترسل الميزانية إلى مجلس النواب فينظرها ويبحث فيها ويعين لها لجنة من أعضائه مساوية بالعدد والرأى لأعضاء مجلس النظار ورئيسه لينظروا جميعا فى الميزانية ويقرروا بالاتفاق او بالأكثرية.

وهكذا تم حسم الصراع حول أحقية النواب فى مناقشة الميزانية. ونتيجة لذلك أجمع أعضاء مجلس النواب على أن البارودى هو رجل الساعة الذى يستطيع بثوريته أن يتجاوب مع آمال الأمة، ويكفل لها الحياة الديمقراطية السليمة، ويحافظ على كرامتها الوطنية باستقلالها الكامل. ومن أجل ذلك أطلق على وزارة البارودى بحق "الوزارة الوطنية" وأطلق عليها أيضا "وزارة الثورة"، فقد كانت تضم ثلاثة من زعمائها: محمود سامى البارودى للرئاسة والداخلية، وأحمد عرابى للحربية والبحرية، ومحمود فهمى للأشغال، واعتبر تشكيل هذه الوزارة انتصارا للجناح العسكرى فى الحركة

الوطنية فى مواجهة الخديوي والأتراك والجراكسة والمراقبة الثنائية، وبرزت شهرة عرابى على اعتبار أن السلطة الفعلية كلها أصبحت فى يده. وافتتحت وزارة البارودى أعمالها بإعداد الدستور، وجعلته يوائم آمال الأمة، ويحقق إرادتها ويحفظ كرامتها كدولة مستقلة، لمجلس نوابها حق نظر ميزانياتها، وبعد موافقة الوزارة على مواد الدستور حمل البارودى الدستور، إلى الخديوي وكأنه يحمل آمال الأمة وتوقعاتها عليها بالموافقة، فلم يسعه إلا أن يضع خاتمه بالتصديق، وما كان ليستطيع - ولو أراد - أن يفعل غير ذلك.

وكان يوم الأربعاء ٨ فبراير قمة المجد الذى بلغه البارودى فى حياته السياسية كلها، وذروة النصر الذى وصلت إليه الأمة بثورتها، ومجلس نوابها، ووحدة القوى الوطنية فيها، فقد حضر "محمود سامى البارودى" رئيس الوزراء إلى مجلس النواب ومعه "اللائحة الأساسية" المحققة لإرادة الأمة مصدقا عليها من الخديو "وقبول البارودى فى المجلس بالتعظيم والإكبار، وسر النواب بهذا الانجاز فشكروا الوزارة الجديدة على ذلك، ثم وقف محمود سامى خطيبا فى المجلس يقدم الدستور لنوابه بخطاب سياسى جامع يكشف عن منابع أصيلة لوطنية البارودى المحبة لمصلحة الوطن واستقراره وسط أفراح الوطنيين وسعادتهم.

وانتهت دورة مجلس النواب الأولى فى ٢٦ مارس ١٨٨٢، وسارت الحركة الوطنية يحدها الرغبة فى السير بالبلاد إلى بر الأمان، ولكن الخديوي الذى أبعدته الوزارة عن الحكم المطلق، ومنعت الأجانب عن التدخل فى شئون البلاد قد ضاق بالحركة الوطنية وشاركه فى هذا الشعور

قنصل بريطانيا العام خشية من نجاح الوزارة ومجلس النواب فى استقرار الأمور والتغلب على المشاكل واحتمال ضياع الفرصة على انجلترا فى احتلال مصر فاستغلت بريطانيا وفرنسا الفرصة لتوسيع دائرة الخلاف بين وزارة البارودى والخديوى، فنصحت الخديوى بعدم التصديق على الحكم الخاص بمؤامرة الشراكسة ضد العربيين والتي صدر الحكم فيها فى مايو ١٨٨٢ كما تقدمت انجلترا وفرنسا بمذكرة مشتركة فى ١٨٨٢/٥/٢٥ تطلبان فيها اسقاط وزارة البارودى، وإبعاد عرابى عن مصر، وتحديد إقامة على فهمى وعبد العال حلمى فى الريف، وقد رفضت وزارة البارودى هذه المذكرة، كما رفضتها الأمة كلها، وأرسلت التلغرافات لتأييد الوزارة الوطنية، ومع ذلك فقد وافق عليها الخديوى وقد أوضح عرابى ذلك فى مذكراته بقوله: "لما رأت انجلترا نجاح الحزب الوطنى فى أعماله وعلمت بتأليف وزارة وطنية حرة، وأن تلك الوزارة صادقت على قانون مجلس النواب ولائحة انتخاب النواب وصدر الأمر الخديوى بالتصديق عليهما كبر عليها هذا الأمر واستمالت إليها دولة فرنسا للاستعانة بها على إطفاء نور الحرية والعدالة" وقد طلب الخديوى من البارودى قبولها منعا لحدوث ارتباكات مالية، وسفك دماء ولكنه اعترض على ذلك وقدم استقالته فى ٢٦ مايو ١٨٨٢ احتجاجا على التدخل الأجنبى وقبول الخديوى له ، فقبلها الخديو بناء على نصيحة انجلترا وفرنسا، مما استثار غضب العربيين، وجعلهم يفكرون فى عزل الخديوى توفيق، وتكوين مجلس وصاية برأسه البارودى وعرابى ليتولى الحكم باسم الأمير عباس الابن القاصر للخديوى توفيق.

كما استقر الرأي على اجتماع مجلس النواب رغم اعتراض الخديوي على ذلك لبحث أمر قبول اللائحة المشتركة ، وتمت مناقشة مسألة خلع الخديو، وطلب عرابي من الحاضرين أن من يوافق على هذا الرأي يقوم بالوقوف فقام الضباط واقفين، واعترض "محمد سلطان" رئيس مجلس النواب وبعض الأعضاء المدنيين على ذلك وتوجهوا إلى سراي الاسماعيلية مطالبين الخديوي بإبقاء عرابي على نظارة الجهادية حتى لا يحدث قلق في البلاد، ووافق الخديوي على طلبهم حفاظا على انتظام أحوال الجيش وحفظ الأمن في البلاد، وبعد عودة عرابي إلى نظارة الجهادية أصدر منشورا إلى قناصل الدول الأجنبية تكفل فيه "بتأييد الأمن والراحة لجميع سكان القطر المصري وطنيين وأجانب مسلمين وغير مسلمين"، ومع ذلك فقد قام بعض العرابيين بالذهاب إلى منزل عرابي وتحرير محاضر بعزل الخديوي، وتختيم بعض الأهالي عليها.

وخلال ذلك أخذت العناصر الوطنية تستعد للمواجهة فدعا البارودي زعماء الثورة وكبار الضباط إلى التحالف واستمرار الوفاء للثورة، وتلا عليهم الشيخ محمد عبده قسم الوفاء للثورة ، وتجديد الولاء لمبادئها على المصحف والسيف، وهم يرددون بعده: " والله العظيم، والله العظيم، والله العظيم قاهر السموات والأرض المتسلط على القوى والقدر، وحق ما في كتاب الله تعالى، إني وأنا (فلان) لا أخون وطني، ولا أخون نفسي، ولا أغش إخواني، ولا أحدا من أهل بلادي ، وأحافظ على عرضي وعلى ديني، وعلى عرض أهل بلادي، ولا أدع أحدا أيا كان يتعدى على أحد من أهل بلادي ما دمت قادرا على منعه، وإني أحافظ على النظام وعلى القانون العسكري بكل ما يمكنني، وبقدر استطاعتي، وإذا حنثت بيمينتي هذا

أكون مستحقاً لقطع الرقبة وشق الصدر، وأكون محروماً من مزايا الإنسانية والآداب".

لقد كان قبول الخديوي اللائحة المشتركة وموافقته على تدخل إنجلترا وفرنسا في شئون البلاد بمثابة الشرارة التي فجرت بركان الثورة المحددة في قلب البارودي على الخديوي توفيق، وأعلنها عليه حرباً شعواء، انتقاماً لكرامة هذا الوطن الذي عرضته الخيانة للخطر. فسيقسم أنه لن يهدأ نفساً حتى يخلص البلاد منه ولو بإراقة الدماء، وبتقديم حياته قرباناً لوطنه. ويدق ما ردد الشعر طبوله، فتزيد رناتها ثورة البارودي النفسية فينشد:

تأ الله أهداً أو تقوم قيامة

فيها الدماء على الدماء تراق

أنا لا أقر على القبيح مهابة

إن القرار على القبيح نفاق

قلبي على ثقة ونفسي حرة

تأبى الدنى، وصارمى ذلاق

فعلام يخشى المرء فرقة روحه؟

أو ليس عاقبة الحياة فراق؟^(١)

ثم يصور البارودي عملاء الرجعية الجدد بقيادة سلطان باشا، ويرد عليهم وقد شنوا حملة دعائية عليه تلومه على موقفه من الخديوي صاحب السلطة الشرعية في البلاد فيقول:

عابوا على حميتي ونكايتي

والنار ليس يعيها الإحراق

(١) أنظر ديوان البارودي.

فاعرفهم ، واحذر تشابه أمرهم

لا تستوى الأغلال والأطواق

شروا الضلالة الهدى ، واغترهم

لين الحياة، وماؤها الرقراق

ثم يتحول إلى الخديوي رأس الخيانة وسليل الرجعية فيلطخه بالعار
ويصمه بالخزي، ويضع صورته على معبر التاريخ فى إطار من الذلة
والهوان، فيقول فيه:

عداك فى سلك البرية خزية

ودعواك حق الملك أدهى وأعظم

- وخلال ذلك تقف جماهير الشعب بجانب الثوار، تتجه وجوههم إلى السماء، ورافعين أكفهم كلما ذكر عرابى "الله ينصرك يا عرابى وتصدر الفتاوى من بعض مشايخ الأزهر بخيانة الخديوى وخروجه عن الشرع وتطالب بعزله ، وينفعل البارودى بكل ذلك وبالمشاكل التى يتعرض لها وطنه ، وتخرج منه أشعار تعبر عن ذلك نذكر منها:
كنا نود انقلابا نستريح به

حتى إذا تم ساعتنا مصايره

فالقلب مضطرب فيما يحاوله

والعقل مختبل مما يحاذره

إذ دام هذا أوضاع الرشد كافله

فيما أرى، وأطاع الغى زاجره

تتكرت مصر بعد العرف، واضطربت

قواعد الملك حتى ربيع طائره

فاهمل الأرض جرا الظلم حارثها

واسترجع المال خوف العدم تاجرہ

واستحكم الهول ، حتى ما يبيت فتى

فى جوشن الليل إلا وهو ساهره

وخلال تلك الفترة كان زعماء الثورة يجتمعون فى منزل البارودى يدرسون الموقف السياسى وأفضل نظم الحكم الملائمة لحكم مصر بعد عزل توفيق ، وكانت الجمهورية الحياضية هى نوع الحكومة المفضل عند البارودى فقد كان يسعى لتحقيقها فى حذر، فى احدى الجلسات أخذ محمود سامى يتحدث عن فوائد الحكومة الجمهورية لبلاد مثل مصر، ومما قاله: " لقد كنا نرمى منذ بداية حركتنا إلى قلب مصر إلى جمهورية مثل سويسرا، وعندئذ كانت تتضمن إلينا سورية ويليها الحجاز. ولكننا وجدنا العلماء والمشايخ يرفضون هذه الفكرة لأنهم كانوا متأخرين عن زمنهم، لكننا مع ذلك سنجتهد فى جعل مصر جمهورية قبل أن نموت، وقد هلك عبد الله النديم خطيب الثورة العربية لهذه الفكرة وأخذ يبيثها فى أذهان الجيل الجديد.

لقد كانت دعوة البارودى إلى خلع الخديوي، وقلب نظام الحكم إلى جمهورية منفصلة عن الدولة العثمانية، وتكون حياضية كسويسرا، تمثل المرحلة الأولى للوحدة العربية بانضمام سورية والحجاز إليها، كما طرح أحد العربيين على عرابى فكرة خلع الخديوي توفيق وتولية حليم باشا ابن محمد على مكانه، ولكن عرابى صاح غاضبا إننا يجب ان نتخلص من

أسرة محمد على كلها. وخلال هذه الاجتماعات كانت تناقش اتجاهات الدول الأجنبية، والتدابير التي يجب أن تتخذها مصر لمواجهة الأطماع الأوروبية، ومدى استعداد الجيش والبلاد في مواجهة احتمالات التدخل المسلح، وقد رأى البارودى ببصيرة القائد الحربى أن قناة السويس هي اضعف نقط الدفاع فى السواحل المصرية، ونصح بأن تتخذ كافة الإجراءات لردمها فى ساعات قلائل عندما يبدو دلائل الاعتداء عليها، ولكن عرابى استبعد فكرة الاعتداء عن طريق القناة تحت تأثير الوهم الذى خادعه به المهندس "دلسبس" من حيدتها واستعداد الدول وخاصة فرنسا لمنع أى اعتداء يأتى من ناحيتها.

وبينما كانت المسألة المصرية تعرض فى مؤتمر الآستانة بتركيا الذى انتهى إلى عقد اتفاق أطلق عليه "ميثاق النزاهة"، والذى تعهدت الحكومات بمقتضاه بأنها فى كل اتفاق يحصل بشأن تسوية المسألة المصرية لا تبحث عن احتلال أى جزء من الأراضى المصرية ولا على امتياز خاص بها قام الأسطول البريطانى بضرب الاسكندرية فى ١١ يوليو ١٨٨٢ وانحاز الخديوي إلى الأعداء ووقف بجانبهم وهبت الأمة المصرية كلها للدفاع عن الوطن. ولما وصل خبر الاعتداء على الإسكندرية إلى البارودى ارتدى ملابس الميدان، وأخذ عتاده الحربى، وأسرع إلى الإسكندرية ليضع نفسه فى خدمة الوطن، ويشارك فى المعركة، واجتمع البارودى بعرابى ومجلس القيادة الحربية^(١) يبحثون تطورات الموقف من الناحيتين: السياسية والحربية ويعملون على تنظيم الخطوط الخلفية وتوفير الامدادات، وقد

(١) كان مكونا من كبار الضباط أمثال محمود فهمى المهندس أركان حرب القيادة المصرية وطلبة عصمت، وسليمان سامى داود وغيرهم من قادة الميدان.

صمدت القوات المصرية فى مراكزها بعض الوقت وبذلت جهدها أمام قذائف الأسطول الانجليزى للطوابى، وتطوع كثير من الرجال والنساء فى خدمة المجاهدين ومساعدتهم ونتيجة لتطورات الأحداث واتضح موقف الخديو المؤيد للانجليز دعا عرابى إلى عقد جمعية عمومية من كافة طوائف الشعب ليعرض عليها الأمر، واتخذت الجمعية قرارها بالاستمرار فى قتال الانجليز، كما تم تشكيل مجلس عرفى من كبار الضباط والموظفين لاتخاذ التدابير اللازمة للحرب، وانضم البارودى إلى هذا المجلس وشارك فى جلساته.

ونتيجة لضرب مدافع الأسطول الانجليزى للاسكندرية وتدمير مواقعها الدفاعية توجه عرابى بجنوده إلى كفر الدوار وأقام استحكاماته هناك فى المكان المعروف باسم الميدان الغربى حيث لم تعد الإسكندرية تصلح كمنطقة دفاعية بعد تحطيم حصونها وحرقتها مما أعاق تقدم القوات الإنجليزية فى هذه المنطقة حيث قدم المصريون سجلا مجيدا لمقاومة الغزاة. وخلال استعدادات عرابى للدفاع عن البلاد أصدر الخديوي أمرا بوقف الاستعدادات الحربية، كما طالب عرابى بالحضور إليه فى قصر رأس التين، ولكن عرابى لم يستجب لتعليمات الخديوي واستمر فى استعداداته مما جعل الخديو يعلن عصيانه وعزله من منصبه.

وكان نص قرار العزل كما يلى: " إن ذهابكم إلى كفر الدوار مستصحباً العساكر وإخلاء ثغر اسكندرية من غير أن يصدر لكم أمر بذلك، وتوقيف حركة السكة الحديد، وقطع جميع المخابرات التلغرافية عنا، ومنع ورود البوستة إلينا ومنع حضور المهاجرين إلى وطنهم بالاسكندرية، واستمراركم فى التجهيزات الحربية ، وارتكابكم عدم الحضور بطرفنا بعد

صدر أمرنا بطلبكم ، كل ذلك يوجب عزلكم فقد عزلناكم من نظارة الجهادية والبحرية، وأصدرنا أمرنا هذا لكم بما ذكر ليكون معلوماً .

ونتيجة لذلك عقد عرابي اجتماعا تم فيه تداول الموقف الحربى وتليت فتوى شرعية مؤداها أن الخديوي بانحيازه إلى العدو المحارب لبلاده يعتبر خارجا عن الدين كما استمر عرابي فى استعداداته، وسافر إليه البارودى مع بعض كبار الضباط إلى كفر الدوار، وعقدوا مجلسا عسكريا مع عرابي، استعرضوا فيه الخطط العسكرية وقرروا تحصين الخط الشرقى ودمياط ، كما رأى البارودى وعلى فهمى رئيس هيئة أركان الحرب المصرية ، ضرورة سد قناة السويس لمنع الأسطول الانجليزى، ولكن عرابي لم يستمع لنصائحهم مؤمنا بوعود ديليسبس التى كانت تتحصر فى ضمان حياد المرور فى القتال للجميع ، فكان ذلك من الأسباب التى غيرت مجرى الحرب حيث اخترق الانجليز حياد القناة ، وانتقلت المعركة إلى الجبهة الشرقية بالنل الكبير فى أوائل أغسطس ١٨٨٢ وأمام هذا التحول المفاجئ فى جبهات القتال أعاد عرابي حساباته وأخذ العربابيون فى إعداد خطوط دفاعية جديدة، وخلال ذلك عرف البارودى أن كفة الحرب قد تحولت إلى مصلحة الأعداء، وأن الوطن قد بات فى خطر، وضافت به نفسه وهو يرى الصواب وينصح فلا يسمع أحد لنصحه ، وتظل يده مغلوله، فالأمر بيد غيره لا بيده، ويموج صدره بالحسرة فيهتف:

نصحت فكذبتم فلما أتى الردى

عمدتم لتصديقى، وقد قضى الأمر

فلم يبق فى أيديكم غير حسرة

ولم يبق عندى غير ما عافه الصدر

فجاء الذى كنتم تخافون شره

وزال الذى لم يبق من بعده شعر^(١)

ولما تخرجت الأحوال فى الميدان الشرقى دعاه عرابى إلى قيادة موقع الصالحية غربى الاسماعيلية فأطاع الأمر الذى صدر إليه ، وهو يعلم ان الدفاع أصبح بعد احتلال القناة أمرا ميئوسا منه من الوجهة العملية، وأن المعركة غير متكافئة ، فقد كانت جيوش الانجليز ضعف عدد قوات الجيش المصرى، هذا بالإضافة إلى تفوقها بالتدريب والمعدات الحربية الحديثة، ومع ذلك لى البارودى نداء وطنه حين دعاه كما يقول:

دعونى إلى الجلى فقامت مبادرا

وإنى إلى أمثال تلك لسابق^(٢)

وخرج البارودى إلى الحرب قائدا لفرقة من ١٢ ألف جندى من الأسلحة الثلاثة: المشاة، والسوارى ، والمدفعية ، وأخذ منذ وصوله إلى مواقعه "يواصل الليل بالنهار فى عمل الاستحكامات الحربية ومد خط دفاع طوله ٤ آلاف متر، كما قام بتحسين مراكز الطوابى بحيث تستعصى على الأعداء، وكان موقع الصالحية هاما لحماية مؤخرة الجيش المصرى، وظل جنوده يقاومون العدو بكل بسالة، ولكن جبهة الخيانة التابعة للخدوى كانت تحيط العدو بمواقع الجيش المصرى واستعداداته ، فتابع الجيش الانجليزى تقدمه ونجح فى الاستيلاء على المواقع الأمامية للجيش المصرى، كما نجح فى أسر "محمود باشا فهمى" مما أدى إلى تصدع الجبهة الشرقية ولما أقتضى الأمر تعطيل تقدم القوات البريطانية عهد عرابى إلى البارودى

(١) للمزيد أنظر: ديوان البارودى.

المشاركة فى واقعة القصاصين فقام بتنفيذ الأمر، وبعد وصوله إلى هناك حاولت القوات المصرية الإحاطة بالعدو، فاجتمع مجلس قيادة الحرب

(١) للمزيد أنظر: ديوان البارودى.

وحضره محمود سامى، وتقرر الهجوم على مركز التجمع الانجليزى بالقصاصين، ورسمت الخطة ، وعرف كل قائد مهمته فى العملية الحربية" وكان على محمود سامى قومندان مركز الصالحية أن يزحف بجيشه ليلا بحيث يصل إلى الخط المعين للقتال عند مطلع الفجر، ويقف على يسار جيش مركز رأس الوادى ، ويحيط بميمنة العدو ، وعلى القوة التى على يمين الترعة أن تحيط بميسرته ، ويفتح الأعراب الترعة من خلفه، ويقطعوا على العدو خط الرجعة. وعمل المخطط بهذا الترتيب على طريق محمود فهمى المهندس رئيس أركان حرب الجيش، وأعطى لكل أمير من القواد نسخة يعمل بموجبها، ويمضى عرابى فيصف المعركة فى مذكراته فيقول: " وفى الثلث الأخير من مساء ٩ سبتمبر قام الجيش على هذا الترتيب ، فلما وصل قريبا من العدو أخذ كل محله على خط النار، ولكن العدو كان عالما بما استقر عليه رأى ، بعد أن أطلعهم عليه الأميرالاي على يوسف خنفس قائد الاستطلاع الذى كان على صلة بالخدوى والإنجليز فاستعد العدو للمعركة، وبادر بإطلاق النار، واشتبك الجيشان، واستبسل المصريون فى القتال، وتوالى التقدم والتقهقر بين الجيشين ، وظهرت خيوط الصباح ورحى المعركة دائرة. وتوقع القادة المصريون هجوم جيش "الصالحية" بقيادة محمود سامى على ميمنة الأعداء ليغير من اتجاه المعركة، ولكنهم أصيبوا بخيبة أمل، حيث لم يأت محمود سامى

بجيشه، وتأخر عن مواعده، فقد قابله في الليل الأعراب المرتشون، وأصلوه وجيشه في الصحراء ! وحين انبلج الصبح ، اهتدى البارودى إلى الطريق وسارع إلى المعركة، ولكن العدو كان له بالمرصاد، ولم يمكنه من تنفيذ خطته.

وحاول البارودى أن يبث الشجاعة في القلوب التى أذعبتها المفاجأة ، ويعيد تشكيل رجاله ، ولكن الهزيمة كانت قد ذهبت بالنفوس، وأطاحت بالعقول " وبقى البارودى مع قلة من الفرسان، وصمدوا للمدافع والنيران.. وظل مع الأعداء فى قتال حتى لم يبق من حوله رجال!!" وإلى هذه يشير البارودى من قصيدة طويلة:

فلما استمر الجد ساقوا حملهم

إلى حيث لم يبلغه حاد وسائق^(١)

هم عرضونى للقنا ثم اعرضوا

سراعا، ولم يطرق من الشر طارق

فكم أبى تلقاه من غير طارد

وكم واقف تلقاه والعقل أبى^(٢)

فلا رحم الله أمراء باع دينه

بدنيا سواه وهو للحق رامق

وهكذا كانت هزيمة الجيش المصرى فى معركة القصاصين بداية النهاية، حيث انفتح الطريق أمام القوات الانجليزية وحدثت معركة التل الكبير التى كانت سلسلة من المأسى قوامها الخيانة حيث كان بالاسكندرية مكتب يسمى " قسم المخابرات العسكرية" مهمته تنظيم شبكة الجاسوسية فى

(١) كناية عن التخاذل والفرار.

(٢) بمعنى هارب.

البلاذ، وكان على رأس هؤلاء " محمد سلطان" رئيس مجلس النواب كما أن معارك التل الكبير كانت غير متكافئة ، وقد ساعد على هزيمة عرابى عدة عوامل منها نجاح الخديوى فى ضم البدو إلى الانجليز بعد رشوتهم ، وخيانة بعض الضباط الذين انضموا إلى الخديوى، وأبلغوه بخطط العرابيين ومواقعهم.

وبعد هزيمة التل الكبير أسرع البارودى إلى القاهرة لاتخاذ العدة للدفاع ومنع الانجليز من دخول العاصمة بمد خطوط الاستحكامات على حدودها فتوجه عرابى إلى العباسية لإجراء ترتيب النقاط العسكرية ووضع التصميمات لإنشاء خط دفاعى، ولكنه وجد شبح الهزيمة باديا على الضباط والجنود، وحاول البارودى ان يقتنع عرابى بترك القاهرة والالتجاء بالجيش إلى الصعيد، فيستولى على جميع المراكب، وتشن بالذخيرة والتعيينات، وتؤخذ إلى الصعيد مع الجيش، وفى الصعيد يمكن تنظيم الجيش من جديد، وتعبئة القوى الإسلامية من ليبيا والسودان، ثم الهجوم على المعتدى وطرده من البلاذ، وإذا ما تغلب العدو مرة ثانية أمكن نقل الجبهة إلى السودان. ويقول عرابى فى مذكراته ردا على مقترحات البارودى: "وحيث أنى رأيت عدم موافقة رأيه لما تحققت من الخراب الذى يحق بمديرتى القليوبية والشرقية ودمار عاصمة البلاذ وسفك دماء الأبرياء على غير جدوى، فضلا عما رأيت من تحول الأفكار وضعف القلوب، واختلال النظام بالجيش وافقت المجلس على التسليم".

وأيقن البارودى ان دوى الهزيمة قد سد الأذان ، وأصاب التفكير بالشلل. فتمثلت له النهاية المزرية فى الاستسلام الذليل للأعداء!! وبعد

قرار التسليم لم يقبل أن يسلم نفسه وسيفه طواعية لأعداء الوطن ، وقال:
"إنى ذاهب إلى منزلى فإذا أرادونى فانهم يعرفون أين يجدوننى".
وسلمت القاهرة فى ١٥ سبتمبر ١٨٨٢ ، ودخلها القائد الانجليزى دون
مقاومة تذكر. وهكذا انتكست أعلام الثورة العربية التى قامت من أجل
الدفاع عن شرف البلاد وكرامتها وصد الظلم الداخلى والتدخل الخارجى
وابتلعت السجون رجالها وأحس الشعب المصرى بمرارة الهزيمة، ولكنه
سرعان ما النقط أنفاسه فانتقلت الشعلة من جيل الثورة العربية إلى الجيل
الذى حمل الراية بعدها بزعامة مصطفى كامل.